ASJP
Algerian Scientific Journal Platform

مجلة افاق للعلوم
Issn: 2507-7228 – Eissn: 2602-5345
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/351

المجلد: 07 العدد: 01(2022) ص153-166

سوسيولوجيا اللغة بين منظومة التربية وثقافة المجتمع

Language Sociology Between The Education System And The Culture Of Society

بشيري زين العابدين
جامعة الجلفة (الجزائر)
zinounour@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
08 جوان 2021
تاريخ القبول:
25 سبتمبر 2021

الكلمات المفتاحية:
- ✓ اللغة
- ✓ منظومة التربية
- ✓ الثقافة الاجتماعية

الملخص:

نستهدف في هذا المقال بحث الخلفية السوسيولوجية للغة؛ بين منظومة التربية وثقافة المجتمع. فتراجعها في مختلف الإصلاحات التربوية؛ مقابل انسحابها من ساحة التفاعل مع الموروث الثقافي، يضع المنظومة التربوية في واجهة التحليل، كما يضع الفاعلين في المجتمع مقابل مسؤوليتهم الاجتماعية تجاهها.

بتحليل هذه المقاربة، توصلنا إلى أن المنظومة التربوية تعاني اختلالات في مناهجها تجاه اللغة، كما أنها غير قادرة على التخلص من التبعية السياسية والفكرية والإيديولوجية، في سيرورتها الثقافية. وضمن ذلك فاللغة العربية تشهد تراجعا كبيرا في بنيتها كمكون ثقافي مميز للمجتمع الجزائري، سببه الهوة السحيقة بين المنظومة التربوية والمنظومة الثقافية.

Article info

Received
08 June 2021
Accepted
25 September 2021

Keywords:
- ✓ *Language*
- ✓ *Education System*
- ✓ *Social Culture*

Abstract :

In this article, we aim to examine the sociological background of language; between the education system and the culture of society. Their decline in various educational reforms; In exchange for its withdrawal from the arena of interaction with the cultural heritage.

In analysing this approach, we found that the educational system suffers from imbalances in its language curricula and is unable to eliminate political, intellectual and ideological dependence on its cultural functioning. In addition, the Arabic language is experiencing a significant decline, caused by the abysmal gap between the educational system and the cultural system.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

مقدمة:

تُعدّ اللغة في أبعادها الاجتماعية مسألة بالغة التعقيد، في زمننا الحاضر الذي تتدافع فيه الأفكار و التوجهات، نحو قدراتها على إحداث التغيير، في أنظمة التربية والثقافة والاتصال والاقتصاد، بل وتتعداها لتكون أداة سياسية عالمية لتحقيق مشاريع كبرى. فكونها نظام من الرموز والدلالات، ووعاء لنقل الثقافات والتراث والعادات، فهي مكون تراهن عليه الأنظمة السياسية والاقتصادية على الخصوص، لتوحد متى شاءت بين الأفراد، أو تفرق بينهم حسب المصالح والغايات.

إن اللغة مُكوّن يضرب في التاريخ حتى العمق، وما أكثر الحضارات التي قيست قوتها بمكانتها فيها، لسانا ورمزا ودلالة ومعنى. واليوم والصراع العالمي بين الأمم يفتح مساحات واسعة للتأويل والتحليل، والبحث في كل تغير يحصل في المجتمعات، تصنع اللغة لنفسها موقعا يفرض على كل باحث إقحامها كعامل ذا أثر من قريب أو بعيد. إنها رهانٌ لحوار الثقافات، وتقارب المجتمعات، أداة للتسويق والإشهار والتجارة، و مجال للتكنولوجيا والسباق نحو الهيمنة من خلال آليات الاتصال والتواصل.

وضمن هذه الحركية التي يشهدها العالم في السعي نحو التحكم فيه، والسيطرة على جميع مناحيه الاقتصادية والسياسية والثقافية والتربوية، تبرز مسألة اللغة لدى الدول التابعة لغيرها، فتنهل من تجاربها وتستورد من أنظمتها ما تبني عليه خططها التنموية ومشاريعها المستقبلية. والجزائر ليست ببعيدة عن هذا الاتجاه، باعتمادها في سياسات الإصلاح التربوية على خطط ومقاربات أجنبية، حاولت من خلالها الحفاظ على بعض المكتسبات في ثوابتها، كاللغة التي رسمت لها في المناهج المدرسية قاعدة أساسية تبدأ منذ مراحل التعليم الأولى التي نجد في أحدها الإشارة التالية: " في مجال المعارف اللغوية والأدبية ينبغي التواصل باللغة العربية في وضعيات الحياة اليومية كتعبير عن الثقافة الوطنية بكل أشكالها (اللساني، الفني، والثقافي والعلمي)، وعن التمسك الراسخ بأصوله التاريخية؛ كما يكون استخدام اللغة العربية كأداة للإنتاج والإبداع الفكري في مجالات العلم والأدب، الفن والثقافة" (وزارة التربية الوطنية، مناهج مرحلة التعليم المتوسط، 2016).

لكن الواقع الذي عليه المتعلمون بعد اندماجهم في المنظومة الاجتماعية بكل جوانبها، تتّجه نحو ثقافة بعيدة عن تلك الأهداف التي سطرتها الوزارة الوصية. إننا عندما نسمع لغة الطلبة في الجامعات، ولغة التواصل بين الأفراد في المعاملات، ولغة العديد من المسؤولين؛ بل الأساتذة وجلّ أفراد المجتمع، نجد منهم بُعدا واضحا عمّا كان يُرتجى تحقيقه فيهم. وقد مرّ العديد منهم بمختلف الإصلاحات التي أشارت كما سبق إلى الكفاءات التي توقعوها في مخرجات أنظمة التعليم المتتالية. إن الثقافة الاجتماعية التي تصبغ مجتمعنا هزيلة اللغة، تتخللها العثرات في التواصل رغم وحدة التراث والعقيدة، ورغم وحدة التاريخ وتقارب العادات والتقاليد. لسان أفرادها خليط من العامية والفرنسية والعربية، تطغى عليه اللهجات ليس في بعد الانتماء؛ وإنما للعقبات التي تقف دون تحقيق المنظومة التربوية لأهدافها، أمام التراكم الثقافي الأجنبي الذي زاد الطين بلّة لما خلفه الاحتلال. ومناهج التعليم تدعم ذلك بتعبيرها:" أجيال من المجتمع الذي يعاني من نقص فادح في مجال لغة التواصل، مما جعل الشباب . على وجه الخصوص . يلجأ إلى لغات أخرى وخليط من اللغات" (وزارة التربية الوطنية، مناهج مرحلة التعليم المتوسط، 2016).

نحن إذا أمام واقع يزداد فيه تراجع اللغة العربية وحتى الأجنبية في التواصل بين أفراد المجتمع. و تضيق فيه مساحات التفاعل مع الموروث الثقافي بشكل لا تبدو فيه صورة الفرد الجزائري متميزا بثقافة معينة. فمن جهة يلقي أفراد المجتمع بجميع أطيافه باللائمة على المنظومة التربوية، على أنها غير قادرة على استخدام أساليب ناجحة في تدريس اللغة، وتمكين المتعلمين من التحكم فيها بكفاءة وفق أهداف مناهجها المدرسية، وبالمقابل تُحمّل المدرسة أفراد المجتمع مسؤولية الانسحاب من تنشئة الأطفال على الموروث اللغوي الذي تحفظه في مختلف

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

مناشطها وعاداتها وثقافاتها. وبالرغم من أن عوامل متعددة غير المدرسة ونظامها التربوي، قد تراكمت وجعلت من المجتمع الجزائري يعيش مضطربا في التحكم في اللغة. بدءا بالرواسب التي خلّفها المحتل الفرنسي، ومرورا على تعاقب الإصلاحات التربوية المتتالية التي ظلت تستعير التجارب الأجنبية من أجل رفع كفاءة المتعلمين، ووصولا إلى انتشار وتجذر المعلوماتية لدى الأجيال التي أصبحت تُسمّى بأجيال الإنترنيت، والتي تجاوزت بتفاعلاتها اللغات التقليدية وأصبحت لا تحتاج إلى طرائق تدريس وبرامج ومواد دراسية للتواصل فيما بينها. كل ذلك وغيره من الافتراضات؛ زاد من تعقيد مسألة اللغة بين مسؤولية المنظومة التربوية والمسؤولية المجتمعية، وجعلها موضوعا متجددا للبحث والاستفسار بالإشكالية التالية:

أين تظهر اختلالات اللغة في علاقتها بالثقافة بين ما هو حاصل بين منظومة التعليم وثقافة المجتمع؟

أهداف الدراسة:

. بحث الكفاءات اللغوية الموجهة للمتعلمين في المنظومة التربوية؛

. بحث استعمالات اللغة في الثقافة الاجتماعية؛

. تحليل واقع اللغة بين المنظومة التربوية، وثقافة المجتمع، من خلال رؤية سوسيولوجية.

فرضيات الدراسة:

. المناهج المدرسية غير موفقة في تخطيط كفاءات التعلم في مجال اللغة.

. البيئة الاجتماعية غير مناسبة؛ لتحقيق ثقافة التواصل اللغوي بين أفراد المجتمع.

منهجية الدراسة:

تنبني الدراسة على استخدام المنهج الوصفي التحليلي، في بحث علاقة اللغة من خلال الكفاءات المستهدفة في المناهج المدرسية،

ومقابلتها بالوضعية الثقافية للمجتمع في استخدامها في الحياة الاجتماعية.

نستخدم للتحليل أيضا منهج تحيل المحتوى للمناهج المدرسية، قصد استخراج غايات وأهداف تدريس اللغة، ضمن الإصلاحات التربوية.

الأداة المعتمدة في الدراسة:

المنهاج المدرسي لمرحلة التعليم المتوسط

المقاربة السوسيولوجية المتبناة في الدراسة:

المقاربة النقدية الصراعية الحديثة، التي تثير مسألة التخطيط للمدرسة في نظامها التربوي، من خلال ربط اللغة بالعامل الثقافي.

2. الإطار النظري للدراسة

1.2. اللغة

تتعدّد الزوايا التي يمكن تناول اللغة فيها كظاهرة حيوية متجددة مؤثرة في المجتمع. تنحى بعضها تجاه رمزيتها كمكون لهوية أفراده وتاريخهم وثقافتهم، وتتجه أخرى نحو حركيتها وفاعليتها في مناشط الحياة من سياسة واقتصاد وتربية وغيرها. كما قد تُتناول من حيث قوة تأثيرها، ومكانتها ضمن صراعات العالم التي يسعى بعضها للهيمنة على بعض. لكنها في المحصلة تبقى ظاهرة شديدة المرونة؛ قد تضيق وتحصرها جدران الصفوف وكراسات التلاميذ في المدارس، و مخططات المناهج و طرائق التدريس والتكوين؛ وتتسع لتفتح آفاقا للبحث في جوانب الفكر والحضارة و مختلف التغيرات الثقافية والاجتماعية.

إنها أحيانا رموزٌ و حفرياتٌ تبحث في ماضي الأمم، وأصواتٌ صامتةٌ تنطق بما كان عليه الإنسان في أزمنة ولّت. وأحيانا أخرى خوارزميات تتّصل بالفضاء، وتفتح للإنسان آفاقا قد تندمج فيها كلّ لغات العالم، حتى لكأن البشر كلهم على لسان واحد. لكنها وبرغم ما شغلت به بأصواتها ومنطقها؛ ورموزها و صورها، وما تحمل من خفايا و معاني، مختلف الفنون والمؤلفات والأبحاث، لا تزال عصية على الجزم بأن البحث فيها قد اكتمل، وأن العلماء قد خبروا أغوارها. بل إنها تنبعث في كل مرحلة زمنية من التقدم العلمي لتجعل من نفسها موضوعا متجددا بامتياز.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

ابتداءً فاللغة وسيلة أساسية للتواصل والتفاهم بين البشر. وهي صفة تميزه عن باقي الحيوانات، ليس من حيث عدد الأصوات أو المفردات؛ بل إن الاختلاف نوعي وجذري يتعلق بكُنه اللغة ذاتها. ورغم التّواصل والتّعدّد والاختلاف الذي شهدته النظريات التي دحض بعضها بعضا في سبر أغوار هذا النظام المعقد، لكل لغة من لغات البشر، إلا أنه ولحدّ الساعة لا تزال حاملة للكثير من الأسرار التي تبدو فيها ظاهرة بسيطة عند دراستها، لكنها تحمل في نظامها ما يجعل منها مادة خصبة للبحث في أكثر من مجال. (نايف و علي، 1990، صفحة 7)

قد تعبر اللغة أحيانا على حضارة أمة كما أسلفنا، فتصفُ حياة الأفراد من حيث مأكلهم ومشربهم وعاداتهم وتقاليده، وكل ما هي عليه ثقافتهم. كما قد تصف قوتهم أو ضعفهم في السياسة والاقتصاد والعلم والتربية. إنها قد تعكس ما هي عليه أخلاقهم وديانتهم وخصائص أفرادهم. وكل ذلك من خلال مكوناتها كظاهرة اجتماعية حيوية بالرموز والصور، والمعاني والأصوات. فتصل إلى حدّ استنطاق التاريخ في ما سلف وما سيقْدُم. فاللغة أولا وأخيرا جزء مكوّن للإنسان، يعكس انتماءه ومستواه ومكانته. إنها ترفعه أو تضعه، فتجعل منه أثرا؛ أو تجعله لا شيء.

لقد التفت معظم لغويي العالم إلى الشكل الظاهري للغة من حيث مكوناتها، فهي عند كافة شعوب الأرض مجموعة من الأصوات. يتناولها الباحث من حيث نظامها الصوتي بالدراسة. وهي بعد ذلك في كلماتها تحمل دلالات، تسمح بتناول علم آخر هو علم الصرف، الذي لا يمكن من خلاله تناول الكلمات منفردة دون وضعها في سياق الجمل التي لها معاني، و التي تدخل في بحث علم آخر هو النظام النحوي. وأخيرا فإن الهدف النهائي لتلك الأنظمة هو نقل المعاني وتبادلها بين الأفراد، فانتقل البحث إلى مستوى آخر يدرس معاني الجمل واستخداماتها المختلفة، فحاولا ولا زالوا يحاولون في ذلك لأجل التوصل إلى معرفة القواعد التي تحكم نظام الدلالات أو الأسس التي ينبني عليها النظام الدلالي لأي لغة عند البشر.

وأخيرا تأتي وظائف اللغة من حيث استخداماتها بين الأفراد لتكون مجالا آخر يُضاف للبحث في كنه اللغة (نايف و علي، 1990، صفحة 10).

اللغة إذا جزء من الإنسان، إنها شخصيته، ومُكوّنه الذي يميزه عن الحيوان، حين ينطلق بها بعقله نحو التفكير فيما سيقول أو سينتج. إنها اليد الثالثة، والقلب الثاني، يعبر بها عن مكنوناته، ويشرح بها أفكاره وتطلعاته، ويطور بها معارفه وعلومه، ويصنع بها مستقبله. إنها الطريق الذي تربطه بغيره من أفراد المجتمع بالتواصل، والصورة التي تُظهر عاداته وتقاليده وثقافته. وبين كل هذا وذاك، هي مكسبٌ يرتجى تحقيق أعلى ما فيه لدى الناشئة حتى يكبروا على ما يلمحه فيهم الراشدون. ولذلك فالحديث عنها قد يضع الأسرة موضع المسؤول عمّا قام به تجاهها نحو أبنائها، كما قد يضع المسجد والكتاب في جانب آخر من المسؤولية تجاهها. ويضع مؤسسات التنشئة جميعها في مستويات متقاربة نحو ما تقدمه لها كلغة، ولمن تستهدفه ضمنها في المجتمع. لترتقي به نحو أهداف متعددة، ومجالات متنوعة. ولكن جميع المسؤوليات السابقة وغيرها؛ تجتمع لدى مؤسسة أخرى، أصبحت هي الوكيلة الرسمية عليها بالتعليم والتدريب والتقويم، ومختلف العمليات التربوية التي تضعها دوما موضع المساءلة، وحتى وإن قصّر غيرها فستظل تحمل عنهم عثراتهم، وانسحابهم، إنها المدرسة؛ بمعلميها ومديريها وجميع مستخدميها، بالبرامج والمناهج والخطط وطرائق التدريس ومواد الدراسة وكل ما تنتجه من معارف و قيم و سلوك، وكل ما تتضمنه منظومتها التربوية.

2.2. الوظائف الاجتماعية للغة

تتعدّد الوظائف الاجتماعية للغة، فتفيد في مجملها في أنها تواصل لغوي أحيانا، وتواصل ثقافي أحيانا أخرى، واتصال ثقافي حضاري بين الأجيال كذلك. إنها بحسب ما يراها العلماء مزيج من الدلالات التي لا تقف عند حدّ الرموز والربط بين أفراد المجتمع الواحد أو بين مختلف الشعوب، بل تتعداه لتصل إلى تحديد وظائفها في كل زمن بحسب خصوصيات أفراده. إنها

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

تحمل من الوظائف الاجتماعية ما قد يُوحّد أفراده رغم اختلاف خصائصهم البيئية والمادية والدينية والاجتماعية.

ويرتبط بالوظيفة الاجتماعية للغة، أيضا تحقيقها للارتباط الروحي بين أفراد المجتمع، حتى وإن اختلفت بعض مكوناتهم البيئية أو خصائصهم كالجنس، أو الدين، أو غير ذلك من الفوارق الاجتماعية والاقتصادية، ولكن سيظل التماسك حاضرا إذا كانت اللغة واحدة (جابر، شبكة الألوكة).

وقد حدّد ألبرت Allport وظائف اللغة الاجتماعية في أنها تجعل للمعارف والأفكار البشرية قيمًا اجتماعية بسبب استخدامها للدلالة على معارف المجتمع وأفكاره. كما أنها تَحتفِظ بالتراث الثقافي، والتقاليد الاجتماعية. و هي أيضا وسيلة لتعلُّم الفرد و تكييفه لسلوكه وضبطه ليتناسب وتقاليد المجتمع. وأخيرا فهي تزود الفرد بأدوات للتفكير. (جابر، شبكة الألوكة).

وهذه الوظائف نراها تعكس مستوى المجتمع فيما هم عليه أفراده. علما و أفكارا ومعارف في استخدامهم للغة من حيث دلالاتها الاجتماعية. وهي في الوقت ذاته تبين مدى ارتباط أجياله بتقاليدهم وتراثهم الثقافي. ما يخلف ردود فعل لديهم في الانسجام مع السلوك العام للمجتمع، والبحث عن سبل التواصل وفق معاييره وضوابطه.

اللغة أيضا في علاقتها بالثقافة ترتبط بالتاريخ، فهي أساس الحضارة البشرية، وتمثل في أهم وظائفها الوسيلة الرئيسية للتواصل بين الأجيال، وعن طريقها تنتقل الخبرات والمعارف والمنجزات الحضارية بمختلف صورها. وتترسخ على امتداد التاريخ لتشكل فكر وثقافة وحياة الأجيال التالية (جمعة، 1990، صفحة 13).

أما الثقافة فإن نشأتها ونموها لا يتم بدون اللغة التي تمكن الإنسان من تحقيق التعاون والاتصال مع غيره، والعمل على تأصيل خبراته وحفظها، وتواصل هذه الخبرة واستمرارها من جيل إلى جيل. كما أن لغة أي مجتمع تعتبر مظهرا من مظاهر ثقافته، ولهذا فإننا يمكن أن نصف الثقافة بنفس الطريقة التي نصف بها اللغة. (كريم، صفحة 99).

من جانب آخر فاللغة كما كانت عابرة للحدود، فهي اليوم أوسع مما كانت عليه. وما حملها من مجتمع لآخر بالثقافة والتجارة والحرب فيما سبق، بالقوة تارة وباللين تارات أخرى، حملها اليوم؛ ولكن بشكل يختلف كلّية عمّا سبق؛ عامل التكنولوجيا الذي زادها توسيعا. وأصبحت المعلوماتية في النظام العالمي اليوم أشد حرصا على رهان اللغة، ليس في بعدها الاقتصادي أو السياسي فحسب بل في أبعاد أخرى معرفية واجتماعية وثقافية.

ولعل ما يقال عن بعض الأشياء أنها سلاح ذو حدّين، فاللغة قد تدخل في هذا الاعتبار و تُستغل في تفكيك المجتمعات، كما قد تنمو دون فعل خارجي. "وقد بدأ المفكِّرون ينظرون إلى اللغة على أنها من أهم العوامل التي يمكن استخدامها في تحقيق فكرة التقارب والتفاهم العالمي؛ وذلك بتبادل الآداب المختلفة والدراسات الاجتماعية كالتاريخ والاجتماع والتربية الوطنية، وغير ذلك مما يوضِّح آمال الشعوب وطبائعها وعواطفها ومزاياها، وكل ذلك يُساعد على تقريب وجهات النظر بين الشعوب المختلفة." (جابر، شبكة الألوكة).

وليست الوظيفة الاجتماعية اليوم حبيسة المجتمع الواحد، أو المجتمعات المتقاربة عقديا و عرقيا، بل إنها اليوم بقصد أو بغيره، وبتخطيط أو دونه، تتّجه نحو الموازنة والمفاضلة في اختيار اللغة الأنسب لتوحيد مكونات المجتمع، علميا وثقافيا واقتصاديا، لتحقق التقارب بين أفراده، بل بينهم وبين أفراد المجتمعات الأخرى وإن اختلفت ديانتهم أو ثقافتهم أو عاداتهم وتقاليدهم. والباحث في سياسات الدول العربية والنامية عامة يجد الأمثلة جليّة في سعيها نحو هذا المسار. صدام وصراع تارات، واتفاق تارة أخرى، فاللغة في الهوية فيها نقاش، وفي التعليم نقاش آخر، وفي السياسة كلّ طرف وتخطيطه وبحثه عن المبررات والحجج التي لا تخرج عن دائرة الوظيفة الاجتماعية للغة باتجاه أفراد مجتمعه، أو لإقناع غيره من بقية المجتمعات التي هو في حاجة للتعامل معها.

اللغة فضاء واسع متعدد الوظائف، وكلما تطور الفكر البشري، وتجددت معه المعارف والعلوم، تنوعت وظائفها

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

وتجددت. ولعل رهانات المستقبل مبنية على تذليل طرق التواصل بين الأفراد والمجتمعات، وهي الخاصية الأقدم والأهم. وهي لدى جميع المجتمعات مطمح لتحقيق أهداف معينة. ونحن في عقيدتنا كمسلمين ننطلق من الآية الكريمة: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ سورة ابراهيم الآية4. لنفهم أن رسالة أي نبي لقومه تكون بلسانهم لتحقيق مقصد الدعوة لله، وتوفير سبل التواصل والفهم والمحاججة. وهو ما كان في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم حين بعثه الله تعالى بالقرآن الكريم كدعوة، وحجة وإعجازا لذلك الزمن، وكل الأزمنة التي ستأتي. وصدق الله في قوله: ﴿حَم والْكِتابِ المبِينِ إِنَّا جعلْناهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُم تَعْقِلُونَ﴾ {الزخرف: 1-3}. فالأساس مبني على إعجاز لغوي حينها، وسيظل كذلك. ويتوسع لمساحات أخرى ذات مقاصد مختلفة. غير محصورة في الدين فحسب، بل تتعداه لمجالات الحياة كلها، سياسة واقتصادا ومعرفة وثقافة، لا يمكن فيها الابتعاد عن الوظيفة الأسمى للغة، وهي المذكورة في آخر الآية (لعلكم تعقلون).

3.2. اللغة و الثقافة في المجتمع

ترتكز الحياة الاجتماعية في مختلف نواحيها على اللغة في توجيهها. فالمعاملات اليومية، والمبادلات التجارية، وعلاقات العمل، و غيرها مما يجمع أفراد المجتمع الواحد على التفاعل فيما بينهم، كله ينبني على اللغة. ولعل أوضح جانب يمكن من خلاله قياس مدى انسجام أفراد المجتمع؛ هو الجانب الثقافي، المتمثل في عادات الناس وتقاليدهم، وسلوكاتهم، واحتفالاتهم، و جميع مناشط حياتهم. أين تظهر في تلك الرموز والمصطلحات والكلمات والجمل والمعاني التي يتداولونها بينهم ويُورّثونها للأجيال بعدهم.

إن الكلمات التي ينطق بها الناس تشير إلى خبرات مشتركة، وتستخدم في شرح وقائع وأفكار وأحداث قابلة للنقل، لأنها تشير إلى مخزون معرفي لدى الأفراد، كما تعكس مواقف ومعتقدات من يكتبها، وفي الحالتين هي تعبير عن واقع ثقافي، ولأنها تتعدى حدود المجتمع الواحد من خلال نقل خبراتهم للغير؛ فإنها تجسد واقعا ثقافيا من خلال جميع مظاهرها اللفظية وغير اللفظية. (كلير، 2010، صفحة 15).

فالواقع الثقافي هو تراكم لشتى أنواع التفاعلات بين الأفراد، يمكن حصوله من خلال التنشئة الاجتماعية التي يتلقاها الطفل في أسرته. فأول ما ينقل الكلمات، التي هي بحدّ ذاتها إيحاءات ورموز وأوامر ونواهي وتعلُّمات، إنها تحمل عادات الأسرة في مأكلها ومشربها وعلاقاتها بأقاربها وجيرانها. وتحمل ضمنها ثقافتها التي ينتقل بها هو الآخر إلى الشارع، والمدرسة، وبقية المرافق الحياتية التي تعيد هي الأخرى إنتاج كلمات يرجع بها للأسرة. فيحصل التراكم لرصيد لغوي، تتشارك فيه مختلف مؤسسات التنشئة الاجتماعية، زاخرا بتراث ثقافي، يتفاوت فيه التأثير في شخصيته، ليكون منطوقه تعبيرا على ثقافته تماهيا مع المثل العربي (المرء مخبوء تحت لسانه).

إن الأجيال تتفاوت في استعمالها للغة داخل المجتمع الواحد، فيحصل الصراع بين الكبار والناشئة أحيانا، ويحصل التوافق أحيانا أخرى، ويفتح هذين الاتجاهين مستويات عدّة لقياس البعد الثقافي للمجتمع. ليس فقط من باب احترام الأعراف ونقل التراث في اللباس و المأكل والمشرب والاحتفالات والعادات والمواقف تجاه هوية المجتمع ومقوماته فحسب؛ بل أول ما سيلفت انتباه أفراد المجتمع من الجيلين هو استعمال الكلمات. وأول ما يثير الصراع أو التوافق والمحافظة بين الجيلين هو اللغة التي يقيس بها كل طرف موقف الآخر تجاهه وتجاه انتمائه الثقافي.

الرافد الأجنبي هو الآخر مثير لعلاقة اللغة في المجتمع بثقافته. ذلك الذي يسميه البعض استلابا حضاريا، ويسميه آخرون غزوا ثقافيا، وكلّ يضع له من المسميات ما يجعله غير مرغوب فيه، أو خطر يلزم التصدي له بما أمكن من الوسائل، أو يعتبره آخرون نوعا من التثاقف، كاتجاه إيجابي نحو الثقافات الأخرى. وفي كلّ الأحوال ما يقدُم من خارج المجتمع في مستوى اللغة؛ له من الدلالات ما يستثير أفراد المجتمع بشكل رسمي أو غير رسمي، بالتخطيط أو بالانطباعات، ما يمثل ردود أفعال تجاه

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

اللغة الأم من كل رافد لغوي، سواء في المستوى العلمي أو الإعلامي أو التجاري، المناحي الأقوى أثرا من غيرها.

الطبيعة هي الأخرى وسيط متأثر باللغة والثقافة من زوايا أخرى "فتتوازى القيود التي تفرضها اللغة والثقافة على الطبيعة مع أشكال مختلفة من التنشئة الاجتماعية أو المثاقفة، ويتشكل سلوك الفرد أيضا وهو ينشأ على الآداب الاجتماعية واللغة المهذبة من خلال الأوامر والنواهي التي يُقرّها المجتمع ويتعلمها الطفل في بيته، والطالب في مدرسته، والعامل في محل عمله، وتؤثر الثقافة بدورها على استخدام اللغة المطبوعة؛ فهي التي تمنح البعد الاجتماعي، و تمنح الأعراف الثقافية النص للمرور إلى القارئ ... هذه هي طريقة الثقافة في إسباغ النظام على استخدام اللغة والتنبؤ بهذا الاستخدام (كلير، 2010، صفحة 19).

أما عن العلاقة بين الثقافة واللغة في الجزائر، فإن بحر الكلام فيها واسع وعميق. عمق التاريخ الذي مرّ به المجتمع الجزائري في تحديه للمحتل الفرنسي وهو يحاول فرنسته. لغة وثقافة وعقيدة وهو ما جعل الأنظمة السياسية المتعاقبة تلجأ إلى العربية كمكون أساسي للهوية، للتصدي لرواسب الاحتلال، والتصدي لمخططاته المستمرة إلى وقتنا، ولتوحيد الثقافات المتعددة التي تميز الجزائريين في بيئاتهم الشاسعة والمتنوعة. ولعل الباحث في حياة الأفراد اليومية، والملاحظ لتواصلهم فيما بينهم، سيجد خليطا واسعا من اللهجات والعبارات والالفاظ التي يصعب على غير الجزائري أن يفهما ما لم يرجع بها إلى معناها في العربية. ولعل عوامل مختلفة كما أشرنا غير الاحتلال قد كونها في المجتمع، إلا أن من يرى في ذلك أمر سلبي، يراه آخرون إيجابي في التنوع الثقافي في مجال اللغة واستعمالاتها لدى الأفراد.

إن هذا الثراء في الموروث الثقافي، سواء منه التقليدي المنتج في البيئة المغاربية، أو الرافد منه مع الحضارة الإسلامية، يرفع من شأن العربية أنها ذات مرونة شديدة، تجعل منها أساس للتقريب بين الثقافات حتى وإن كانت غير عربية، والمتفحص في التاريخ الإسلامي يجد العديد من النماذج التي تُظهر انتشارها في البلدان غير العربية. بل وتمكن علماء من غير العرب في التفوق والعطاء العلمي بها. الأمر الذي يزيد من حدّة النقاش حول موقعها في المنظومات العربية التربوية والثقافية، وأسباب غيابها عن ساحة التطور العلمي والتكنولوجي.

4.2. المنظومة التربوية وثقافة المجتمع

يشير ليفي ستروس إلى أن الملامح المميزة للوجود البشري هما اللغة التي يواجهها البشر عند دخولهم للحياة، وحقيقة أن البنية التحتية لكل اللغات واحدة، فاللغة تنشأ في العقل البشري اللاواعي. مثلها مثل الثقافة التي تنشأ في عمليات الفكر اللاواعي. وبالتالي فإن مضمون اللغة والثقافة يشتركان من خلال كونهما نظام من الإشارات والرموز في تنظيم طريقة الفكر البشري. هذا الذي يهيكل بدوره عالم اللغة والسلوك (التنظيم الاجتماعي) بنفس الطريقة (فيليب، 2010، صفحة 182).

فإذا انطلقنا من استحواذ المدرسة على القسط الأكبر من تنشئة الافراد على نظام الكلمات، ورموزها، ودلالاتها؛ فإننا نجدها من حيث زمن المكوث للمتعلمين فيها أكثر الأماكن هيمنة على وقتهم، فهي تنافس حتى الأسرة. وإن زدنا لذلك عامل الارتباط في العقل اللاواعي لديهم بما ستضمنه لهم في المستقبل، وأضفنا لهما عامل تأثيرها في ثقافة المجتمع؛ فإننا سنصل إلى أن التنظيم الاجتماعي الذي يحصل؛ لا يهيكل السلوك واللغة بنفس الطريقة. بمعنى أن ما تخرجه المدرسة من حيث سلوك أفرادها بعيد عن عالم اللغة التي يعيشونها. فهم كما أشرنا من قبل ودعمته مناهج التعليم أبعد من أن يكونوا حاملين لرصيد لغوي يتفاعلون به في المجتمع ويعكس حقيقة انتمائهم الثقافي.

نجد في إحدى الاقتباسات لنص عالم اللغة والأنتروبولوجيا إدوارد سابير (Sapir، 1949، صفحة 162) من كتاباته حول اللغات الهندية والأمريكية، والتي وضع بها قواعد لنظريته في النسبية اللغوية؛ ما يشير إلى أن اللغة هي الدليل على الواقع الاجتماعي. وهي المسؤولة عن تشكيل تفكيرنا كله حول القضايا والمتغيرات الاجتماعية. و الإنسان لا

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

يعيش في العالم المادي وحده، ولا يعيش في النشاط الاجتماعي وحده، ولكنه يعيش في كنف اللغة التي يعبر بها في مجتمعه. كما يشير أيضا أنه من الوهم الاعتقاد بأن الإنسان يستخدم اللغة فقط كوسيلة عرضية للتفاهم وتوصيل الفكر، بل إن 'عالم الواقع' قد انبنى على العادات اللغوية التي تبنتها الجماعة التي تتحدث تلك اللغة (كلير، 2010، صفحة 143).

بالمقابل نجد المنظومة التربوية في مناهج الجيل الثاني تشير إلى أن اللغة العربية في الجزائر كانت رهينة سياسات غير مناسبة حالت دون استخدامها في التواصل بين الأفراد وأعاقت المدرسة عن تحقيق ارتباط المجتمع بهويته، وهو ما أشرنا إليه سابقا. فبين هذا وبين ما اقتبسناه من النص السابق يمكننا أن نقدم تساؤلا جديرا بالطرح المنهجي حول نقد مناهج الجيل الثاني للسياسات السابقة للمنظومة التربوية. دون تقديم المبررات العلمية التي هي في الواقع تتوافق ونظريات المتخصصين في اللغات وعلاقتها بالثقافة. فإذا كان التواصل ضرورة تلتزم بها المدرسة كهدف يجب الوصول إليه لدى المتخرجين منها، فأين محلّ البناء اللغوي الذي يتبناه المجتمع الجزائري في عالم الواقع من خلال عاداته اللغوية في مناهج التعليم؟

يقول دويل وهاريس: "إذا لم تعن الكلمات ما نعنيه بالفعل، فإنها إذا لا يمكن استخدامها للتعبير عما نريد أن نقول" (فيليب، 2010، صفحة 180). ومنه فإن شخصيات الكثير من خريجي المدرسة اليوم، في حالة اغتراب من حيث اللغة وعلاقتها بالثقافة الجزائرية. وربما لا نبتعد كثيرا عن الصواب لو قلنا أن المجتمعات المغاربية كلها، بل حتى العربية؛ لا تتوافق فيها أهداف منظوماتها التربوية وأبعاد الثقافة العربية الأصيلة. ولربما لو عدنا بالزمن لسنوات مضت؛ لوجدنا لذلك مبررات يجمعها عنصر الاحتلال الذي مرّت به معظمها. وعنصر التبعية الاقتصادية والعلمية والسياسية؛ إلا أن الإصلاحات التي تتابعت وتوالت على مختلف الأنظمة العربية، لم تكن تراعي لمقوم الثقافة في تخطيط التعليم للغات ما يجعلها مُوفّقة في الجانبين؛ فلا هي باللغات قد ترسخت وتحكم فيها خريجوا مدارسها، ولا هي بالثقافة العربية قد تأصلت أمام ثقافات العالم الأخرى.

إن موقع العربية في المنظومة التربوية في علاقة قوية مع ثقافة المجتمع الذي تتحقق فيه أهدافها. فتبادل الأدوار بين الأسرة والمدرسة وبينهما المجتمع بكل مؤسساته الأخرى، في تنشئة الأفراد على اللغة، متقطع القنوات إلى حدّ كبير. فقد تفسد بيئةٌ بيئةً أخرى حينما تنبني قاعدة الطفل على لغة سليمة ثرية في البيت و تفسدها المدرسة أو يحصل العكس. وليست البيئة الاجتماعية بمنأى عن ذلك حين تدخل بينهما بأساليبها العشوائية، فتكون الضحية هي اللغة العربية التي تتراجع أمام الثقافة المنتشرة في كل مؤسسة على حدة. وهذا هو الذي يجعلنا نشير إلى الهوة السحيقة الموجودة بين مؤسسات التنشءة الاجتماعية كلها في مجال أهداف اللغة. إن الأهداف حين لا تتقارب فستجعل من شخصية الطفل تنمو مضطربة متهلهة. وهو الحاصل فيما أشرنا إليه سابقا في افتراضاتنا، فإذا كان الهدف بين الأسرة والمدرسة هو تحقيق النجاح والوصول إلى الشهادة بأي طريق، فإن الأهداف السامية للعلم، وعلى رأسها المكسب اللغوي، قد يكون في نطاق ضيق لا ترفعه سوى الاجتهادات الشخصية، والمحاولات الفكرية التي لازالت بعيدة المنال.

5.2. المقاربة النظرية لعلاقة اللغة بالثقافة

إن فكرة الصراع الشائعة في الجزائر، والتي تناولها العديد من الباحثين، حول التيار الفرنكفوني مقابل التيار العروبي في تخطيط المنظومة التربوية، منذ الأيام الأولى للاستقلال، لا زالت تعيد نفس التجاذب الذي ظلت عليه طوال فترات الإصلاح المتتالية. وربما نجد في مقاربة بيير بورديو وزميله كلود باسرون حول إعادة الإنتاج، أقرب المقاربات لتفسير ما يحصل في مستوى اللغة في علاقتها بالثقافة بين المدرسة والأسرة والمجتمع. ولتفكيك رموز هذه المقاربة وإسقاطها على واقع المجتمع الجزائري، فإننا إلى حدٍّ ما لا نستطيع إثارة مسألة الطبقية في المجتمع بنفس الحدة التي طرحاها في أفكارهما، ولكنها تبعث على فكّ عدد من الخيوط المتشابكة حول فشل

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

المنظومة التربوية بعد كل مرحلة إصلاح تحصل في سياستها التربوية.

انطلق كل من بورديو و باسرون من فرضية سوسيولوجية، مفادها أن المتعلمين لا يملكون حظوظا متساوية في تحقيق النجاح المدرسي. ويرجع السبب أساسا إلى التراتبية الاجتماعية، والتفاوت الطبقي، ووجود فوارق فردية داخل القسم الدراسي نفسه. وبالتالي فمن خلال دراسات إحصائية توصلا إلى أن الثقافة التي يتلقاها المتعلم في المدرسة الرأسمالية ليست ثقافة موضوعية أو نزيهة ومحايدة، بل هي ثقافة مؤدلجة تعبر عن ثقافة الهيمنة وثقافة الطبقة الحاكمة. وبالتالي فالمدرسة تعيد إنتاج الطبقات الاجتماعية نفسها عن طريق الاصطفاء والانتقاء. فهي تكرس اللامساواة الاجتماعية، وليست التنشئة الاجتماعية تحريرا للمتعلم، بل إدماجا له في المجتمع في إطار ثقافة التوافق والتطبع والانضباط المجتمعي (جميل، 2015).

وربما لا نستطيع أن نثير قضية الطبقية بالشكل المقصود في مقاربة بورديو وباسرون في المدرسة الجزائرية، إلا أنها تتضمن أبعادا متشابهة في وجود أفراد من المجتمع يحاولون تنشئة المتعلمين بصورة ذات نمط مشابه لنمط حياتهم التي تتجه إلى الشكل الغربي أكثر منه العربي. ولذلك فاستخدام اللغة الفرنسية في الرموز ومنافستها للعربية في التدريس، واستخدامها في مختلف التفاعلات الاجتماعية لدى الفئات الفرنكوفونية، قد تدفع نحو تقريب المدرسة من أبنائهم أكثر من الطبقات الفقيرة التي تستخدم لغة غير تلك اللغة. وربما يأتي من يرى في وجود المدرسين المعربين في المدرسة الجزائرية عكس ذلك باندماجهم في أوساط الطبقات الشعبية، فلغتهم تكون أقرب إليهم وبالتالي فأبناء الطبقات الغنية التي تعرف باتجاهها الفرنكفوني سيكون أبناؤهم هم الضحايا. ومن خلال هذين الاتجاهين في توظيف البعد الثقافي واللغة كمكونين لإفراز الطبقية في المجتمع، وتحقيق النجاح المدرسي لأبناء طبقة على حساب أخرى، يمكن الاعتماد على هذه المقاربة لإسقاطها على المجتمع الجزائري من خلال الأبعاد التربوية المستهدفة في المناهج المدرسية في مسألة العلاقة بين اللغة في المدرسة والثقافة الاجتماعية.

وبالعودة لافتراضات بورديو وباسرون فإن المدرسة بالنسبة لهما تعمل وفق تقسيم المجتمع إلى طبقات و تكرس إعادة الإنتاج والمحافظة على الوضع القائم الذي أنتجها. ويُلاحظ هذا في المراحل التي تسبق الالتحاق بالمدرسة حين يكون الاختلاف في نوع الثقافة التي يتشبعون بها والتي لها علاقة قوية بالرصيد اللغوي، ويكونون غير متساوون في ذلك. أي غير متساوون في الرأسمال الثقافي المتمثل في المهارات اللغوية الملائمة التي تسهل عملية التواصل التربوي (جميل، 2015). بمعنى أن ثقافة أبناء الطبقات البورجوازية، قريبة من الثقافة التي تفرضها المدرسة، ما يسهل عليهم الانسجام والتلاؤم مع النظام التربوي بما يطرحه من قيم ومعايير ثقافية ولغوية للنجاح والتفوق. ولذلك فالمدرسة ستعمل على إعادة إنتاج ذلك لتضمن التفوق الدائم لهم مقابل أبناء الطبقات الشعبية. وكما سبق الإشارة إليه سابقا فإن المقاربة لا تظهر في شكلها في المجتمع الجزائري بين ما هو ثقافي ومدرسي في مسالة اللغة، ولكن التحليل السوسيولوجي يُحيلنا إلى استخدام المقاربة لتوضيح مدى قدرة التخطيط السياسي للتربية في استغلال اللغة قصد تمرير مشاريع مهما تكون طبيعتها، ذات بعد إيجابي أو سلبي.

3. الإطار التطبيقي للدراسة

1.3. تحليل محتوى المنهاج المدرسي

أولا/ تحديد الهدف:

استخراج الكفاءات المستهدفة في تدريس اللغة في مناهج التعليم المدرسية،

ثانيا/ تحديد العينة وخصائصها:

عينة التحليل هي منهاج مرحلة التعليم المتوسط. وأهم خصائصها:

. أنها وثيقة وزارية تصدر عن وزارة التربية الوطنية، من إعداد اللجنة الوطنية للمناهج، عدد الصفحات 537 صفحة، من منشورات الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، بتاريخ مارس 2016، تتضمن ديباجة تشرح فيها الإطار العام في جزئها

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

الأول في 28 صفحة، وفي الجزء الثاني مناهج المواد الدراسية، والوثيقة متوفرة ورقيا وإلكترونيا بالموقع الرسمي للوزارة.

. يشغل منهاج اللغة العربية حيزا من الصفحة 30 حتى الصفحة 53. ويتضمن خمس محاور أساسية أولها تقديم المادة الذي يشمل غاياتها وإسهاماتها في تحقيق الملمح الشامل للمتعلم، وطبيعة الموارد المجندة، وإسهامات المادة في التحكم في مواد الأخرى. أما المحور الثاني فيتضمن ملامح التخرج الذي يشمل بدوره تقديم والملامح من التعليم الأساسي وأطوار التعليم المتوسط. وفي المحور الثالث نجد مخطط الموارد لبناء الكفاءات. وفي المحور الرابع برامج مفصلة للسنوات الأربع لتعليم المتوسط. أما المحور الخامس والأخير فيضع المنهاج موضع التطبيق، متضمنا توصيات، وتوجيهات تتعلق بالتقويم وأخرى عامة.

ثالثا/ تحليل العينة:

المعروف عن تحليل المحتوى أنه ينبني على تحديد الفئات والوحدات: فهو طريقة للتحليل المعنوي للموضوع ، أي تحليل معنى الموضوع ، وفيه يقوم الباحث بتحليل المعاني التي تعطيها الفقرات أو الجمل أو الكلمات أو الرموز في النص للموضوع ، كما يقوم بتفسير كل معنى على حدة ، ثم يصل إلى مرحلة التركيب أي حوصلة جميع المعاني مع بعضها ليعطي وحدة كاملة متكاملة ومتناسقة ومترابطة لموضوع البحث (رشيد، 2007، صفحة 167) وهو ما نضبطه بالشكل التالي وفق ما يتناسب والدراسة:

وحدة التحليل المعتمدة: السياق (المعنى)

بمعنى أننا نبحث عن أهداف تدريس اللغة العربية في بعدها الثقافي والتواصلي، من حيث معناها الوارد في المناهج المدرسية.

فئات التحليل: . كفاءات التعلّم

. ملمح التخرج للمتعلم

بمعنى أن البحث عن المعاني الواردة في المناهج المدرسية تكون في ما ورد في فئة (كفاءات التعلّم) وفئة (ملمح التخرج للمتعلم). وبالضبط في منهاج اللغة العربية الذي اعتبرناه عينة قصدية، الغرض منها الوصول إلى ما يستتر عادة في التخطيط التربوي، من حيث المراحل التاريخية التي مرت على إصلاح المنظومة التربوية.

2.3. إجراءات التحليل

من خلال تحليل مضامين كفاءات التعلم، وملمح التخرج للمتعلم في مرحلة التعليم المتوسط، نجد أن المناهج المدرسية تستخدم مقاربة بنائية لا تتناسب و خصائص اللغة العربية، والتي لا تقف عند حدّ الهدف التواصلي في مختلف الوضعيات المدرسية والاجتماعية التي يستهدفها منهاج اللغة العربية في فئتي التحليل (كفاءات التعلم وملمح التخرج للمتعلم)، كون هذا الهدف قد يتحقق مع تدريس أي لغة أخرى يكون الغرض منها تحقيق التواصل والقدرة على التعبير والتفاعل فحسب. وقد أشرنا إلى أن العربية أعلى في وظائفها وخصائصها من أن تُحصر في التواصل. ومجالات العلم عبر التاريخ لدى العلماء العرب حجة تُقرّ بها المناهج المدرسية نفسها، وتعتبرها في كثير من البرامج المدرسية أنها كانت سباقة للاكتشاف والابتكار و نشر المعرفة.

إن أكبر المؤشرات التي تلغي العربية من كونها لغة علم وتطوير تكنولوجي متضمنة في المنهاج المدرسي، باستخدام الرموز الأجنبية، عوض العربية، بعد إصلاحات التعليم باعتماد مقاربة الكفاءات. ففي منشور وزاري رقم 03.881 مؤرخ في 10سبتمبر2003 متعلق باستعمال الترميز العالمي والمصطلحات العلمية في المناهج التعليمية الجديدة على مستوى التعليم المتوسط جاء فيه: "يطبق الاتجاه العالمي في كتابة العمليات الرياضية في السنة الأولى متوسط، أي من اليسار إلى اليمين، وتستعمل الرموز العالمية لوحدات القياس بأنواعها المختلفة إلى جانب الرموز بالعربية المستعملة سابقا" (مديرية التقويم والتوجيه والاتصال، 2009، صفحة 13). فهذا المؤشر يبعث على تنشئة المتعلم على الموقف بالدُّونية تجاه اللغة العربية، معتبرا إياها غير صالحة للاستعمال العالمي والتكنولوجي. وعند انتشار الكتب المدرسية وتداولها خارج المدرسة سيكون الأمر بشكل غير مباشر مدعاةً للتضييق على

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

العربية، ومحاصرتها في مجالات محدودة، لا تتعدى أن تكون وسيلة تواصل فحسب كما ترمي إليه المناهج المدرسية.

لقد حملت المناهج المدرسية في الجزائر على تعاقب الأجيال أهدافا وغايات متعددة، تشترك في مجملها قبل وبعد الإصلاحات في آليات واستراتيجيات تدريس اللغة، عربية كانت أو أجنبية. وقد كان الجديد الذي يقدُم مع كل إصلاح يربطها بالهوية والمواطنة و انتشار المعلومة والانفتاح على ثقافات العالم. فلم تعد ترتبط بالأدب و فنونه، ولا بالدين وشريعته، بل جذبها التطور التكنولوجي إلى زوايا أخرى يفرضها نظام الاتصال العالمي. وقد بدا التحول في مختلف السياسات التربوية المتعاقبة متجاوزا للكثير من وظائف اللغة، خاصة منها العربية. وانتقل من مستوى الوظيفة المميزة لها عن بقية اللغات، إلى مستوى وظيفتها البراغماتية إن صح التعبير. فاللغة أصبحت أداة مرتبطة بالاتصال أكثر من أي مقوم آخر لها.

بتعاقب السياسات الإصلاحية للمنظومة التربوية، وتأثرها بعوامل مختلفة، سياسية واقتصادية وثقافية، تطورت الأهداف لدى لجان التخطيط للغة كمادة دراسية في التعليم القاعدي. فنجد في أحدها ما يكشف لنا التوجه الواضح في ميدان المعارف اللغوية والأدبية: " التواصل باللغة العربية في وضعيات الحياة اليومية كتعبير عن الثقافة الوطنية بكل أشكالها (اللساني، الفني والثقافي والعلمي)، وعن التمسك الراسخ بأصوله التاريخية؛ وكذا استخدام اللغة العربية كأداة للإنتاج والإبداع الفكري في مجالات العلم والأدب، الفن والثقافة. وفي نفس الميدان معرفة (من خلال النصوص) أسماء الكتاب والأدباء الجزائريين والمغاربيين والعرب، وأدباء ذات شهرة عالمية؛ وأيضا التحكم في لغتين أجنبيتين كبعد يعبر عن الثقافة العالمية" (وزارة التربية الوطنية، مناهج مرحلة التعليم المتوسط، 2016، صفحة 15).

فالواضح من خلال هذه الأهداف أن منطلقها التواصل كتعبير عن الثقافة الوطنية والتاريخ، فالرابط هنا واضح المغزى، في أن المتعلم سيحصل في نهاية تكوينه على كفاءات التواصل التي تعبر عن ثقافته العربية. وهو انتماء قومي عرقي يضيف إلى جانبه مقوما آخر تشير إليه أيضا المناهج: "تعلم اللغة الأمازيغية كتعبير عن الثقافة الوطنية بكل أشكالها (اللساني، الفني والثقافي والعلمي)؛ والسعي نحو التحكم في اللغة الأمازيغية تعبيرا عن التمسك بأصوله التاريخية" (وزارة التربية الوطنية، مناهج مرحلة التعليم المتوسط، 2016، صفحة 15). والمغزى هنا أيضا له من الدلالات ما يشير إلى ارتباط اللغة بالثقافة والتاريخ لأجل تحقيق هدف التواصل.

3.3. نتائج التحليل

تقدم المناهج المدرسية لمختلف مراحل التعليم القاعدي (الابتدائي، المتوسط والثانوي) أهم الأهداف المرتجاة من وراء تدريسها كمادة أساسية. وتوضح طرائق تدريسها للمدرسين، كما تصفه للأولياء والشركاء، حتى تحصل الوحدة والتقارب لدى جميع مكونات المجتمع في غايات المدرسة الجزائرية. ولعل القراءات التي نستشفها مما جاء في مناهج التعليم المتوسط كعينة لاستقراء ما فيها من دلالات يحيلنا إلى ربطها بالمكون الثقافي للمجتمع فيما يلي:

" العربية هي لغة المدرسة الجزائرية، واللغة الوطنية الرسمية، وإحدى مركبات الهوية الوطنية الجزائرية، وأحد رموز السيادة الوطنية... ويرمي تدريسها في مرحلة التعليم المتوسط إلى دعم المكتسبات اللغوية للمتعلمين وإثرائها، وتغذية البعد الثقافي والوجداني، وتوسيع معارفهم بما يلبي حاجاتهم المدرسية والاجتماعية، باعتمادها وسيلة للتواصل اليومي الشفوي والكتابي." (وزارة التربية الوطنية، مناهج مرحلة التعليم المتوسط، 2016، صفحة 29).

فالمفردات الواضحة في التقديم (اللغة . البعد الثقافي . التواصل) في تعريف المنهاج للمادة يفتح المجال لفهم الأبعاد التالية:

. البعد التربوي: الذي يضع المدرس في وضعية المسؤول عن تدعيم المكتسبات اللغوية، بما يلبي الحاجات المدرسية المتعلقة بكل أشكال التعلم. وتعديل السلوك وفق معايير المجتمع الذي ينتمي إليه هو و المتعلمين على حدّ سواء.

فالمدرسة تشكل نظاما معقدا ومكثفا ورمزيا من السلوك الإنساني المنظم الذي يؤدي بعض الوظائف الأساسية في داخل

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

البنية الاجتماعية. فهي تتكون من سلوك وأفعال للفاعلين الاجتماعيين. ومعايير وقيم منظمة للتفاعلات الاجتماعية والتربوية داخل المدرسة وخارجها. كما أنها أفعال تتصف بالتنظيم لتؤدي إلى إعادة إنتاج الحياة الاجتماعية ثقافيا وتربويا. (علي و علي، 2003، صفحة 20).

. البعد الثقافي: والذي يتشكل من خلال ما سبق وبتدعيم أسري واجتماعي؛ نحو تغذية الجانب الثقافي المرتبط بهوية المتعلمين ضمن مجتمعهم. فهي كما أشار المنهاج أنها (اللغة) إحدى مركبات الهوية الوطنية الجزائرية.

فالوظيفة الثقافية للمدرسة؛ تكمن في أنها تسعى إلى تحقيق التواصل والتجانس الثقافيين في إطار المجتمع الواسع، خاصة باتساع التناقضات الممكن وجودها داخل المجتمع الواحد. حيث تعمل على تعزيز لغة التواصل القومي بين أفراده وإحداث التجانس في الأفكار والمعتقدات والتقاليد والتصورات السائدة فيه. (علي و علي، 2003، صفحة 38).

غياب الموروث الإسلامي الذي لطالما ربط اللغة بالثقافة العربية، فكانت المجتمعات العربية متقاربة في أنماط حياتها الاجتماعية و أهداف أفرادها. وكان التقارب شديدا لدرجة زوال الحدود الجغرافية بين المشرق والمغرب في مختلف الأبعاد الهوياتية والثقافية.

. البعد الاجتماعي: والذي يرتجى تحقيقه من خلال تدريس اللغة العربية في توسيع المعارف بها لتلبية الحاجات الاجتماعية أثناء التواصل اليومي.

أما عن مسألة التواصل فإننا و بالرجوع إلى أهداف المناهج المدرسية في ملامح التخرج لغويا من المدرسة، فإننا نقرأ انتقادا واضحا للسياسات التي كانت تنتهجها المدرسة في تعليم اللغة العربية في إحدى فقرات منهاج الجيل الثاني لمرحلة التعليم المتوسط: "إن ما تسعى إليه مناهج الجيل الثاني، هو جعل اللغة العربية لغة التواصل، والخروج بها إلى أفق أوسع، وتحريرها من القيود التي كبّلتها بها المدرسة منذ الاستقلال إلى يومنا هذا، مكرسة كلغة 'المدرسة' فقط، بعيدة عن ميدان التواصل اليومي الذي هو دور كل لغة بشرية" (وزارة التربية الوطنية، مناهج مرحلة التعليم المتوسط، 2016، صفحة 30).

فالسياسة التربوية بَعدَ آخر تعديل للمناهج، والتي سُمّيت بمناهج الجيل الثاني التي بدأ العمل بها في الموسم الدراسي 2017/2016 تصف ما سبقها من سياسات؛ أنها كانت مُكبّلة للغة العربية، ولم تضعها في موقعها المناسب الذي تصفه بأنه (ميدان التواصل اليومي، ميدان كل لغة بشرية). فالمعنى هنا يفيد في أن التحول هنا ضرورة منوط بها المدرس والمدرسة بالأساس. وهدفها مدرسي وفي نفس الوقت غرض أسمى: "فيرسخ لديه الاعتزاز بانتمائه إلى الأمة الجزائرية بمركباتها الثلاث، الإسلام والعروبة والأمازيغية". (وزارة التربية الوطنية، مناهج مرحلة التعليم المتوسط، 2016، صفحة 30).

محصلة التحليل تدفعنا نحو تأكيد الفرضيتين اللتين طرحهما الباحث فيما يلي:

الفرضية التي تعبر على أن المناهج المدرسية غير موفقة في تخطيط كفاءات التعلم في مجال اللغة. فعلا مستوفاة في جُلّ جوانبها فهي تركز على جعل المتعلم مرتبط بالتواصل بشكل مبالغ فيه، يفقد اللغة العربية تميزها ويجعلها شبيهة بأي لغة أخرى يمكن استخدامها بغرض التواصل فحسب.

الفرضية الثانية التي مفادها أن البيئة الاجتماعية غير مناسبة؛ لتحقيق ثقافة التواصل اللغوي بين أفراد المجتمع. صحيحة بشكل كبير، خاة في مستوى الانسحاب الذي يسجله المجتمع من تمسكه بالموروث الثقافي المتعلق باللغة العربية، ما يجعل المتعلمين في موقف سلبي من هويتهم وثقافتهم العربية، معتبرينها بعيدة عن الواقع ولا تصلح سوى في المدرسة و مراحل التعليم المختلفة.

7. الخاتمة

استنادا لما جاء به بارسونز وبالس في تركيزهما على أن الثقافة تأخذ طريقها إلى الأطفال عبر التربية؛ خاصة منها العائلية، وهي التي تسمح للناس بالتعلم في مختلف المواقع والأدوار. وأن التلاميذ في المدرسة يتوقعون في المعلم معاملة نزيهة في أدائهم الدراسي (هارلمبس و هولبورن، 2010، صفحة

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

22). ودعمنا ذلك بما جاء به بورديو وباسرون في دراسة المجتمع الفرنسي، وطرحهما لفكرة التفوق الطبقي وحظوظ النجاح المدرسي من خلال المستوى اللغوي للأطفال. حيث تكون اللغة الرسمية المستخدمة في الأوساط الاجتماعية البورجوازية قريبة ومتجانسة مع لغة المدرسة، ما يفتح آفاقا أوسع وأسهل لأبنائها في تفوقهم الدراسي على أبناء الطبقات الفقيرة. (علي و علي، 2003، صفحة 172). ومن خلال قراءاتنا لما جاء في المناهج المدرسية و كل ما سبق فإننا نصل إلى ما يلي:

العلاقة بين اللغة فيما هو حاصل بالمدرسة؛ والثقافة فيما هو مشاهد في الواقع الاجتماعي. يدعم الانتقادات التي تقدمها المنظومة التربوية لنفسها في مراحل الإصلاح و التعديل المتتالية. وذلك يجعل من جميع مكونات المجتمع و مؤسساته تلقي عليها باللائمة. و العديد منهم يشير إلى أنها لا تزال غير قادرة على التخلص من التبعية السياسية والفكرية والإيديولوجية. وهو الذي يُبعدها عن تحقيقها لأهداف المجتمع من حيث تطور اللغة ونقاء الثقافة ونموها. وفي المقابل لا تزال البيئة الاجتماعية لا تعمل على تدعيم المكتسبات التي يخرج بها المتعلمون من المدرسة، بانسحابهم من استحضار الموروث الثقافي العربي في المعاملة والتواصل.

الأسرة منسحبة بشكل كبير عن دورها في دعم الرصيد اللغوي الذي يتخرج به المتعلمون من المدرسة، و غائبة عن تفعيل الموروث الثقافي في الحياة الاجتماعية. فهي لا تربط بين هذا وذاك، ولا تعمل على توجيه الآليات والوسائل الأخرى غير المدرسية في تدعيم اللغة العربية. وينسحب ذلك على وسائل الإعلام التي هي الأخرى، غير قادرة على جذب أفراد المجتمع بخطاب لغوي هادف يرفع من صورة اللغة العربية امام مثيلاتها من اللغات الأخرى أو اللهجات المحلية. إلا أن ما يحصل في الكتاتيب ودور الحضانة يعمل بشكل إيجابي في كثير من الأحيان في تنمية الرصيد اللغوي للأطفال، وإكسابهم العادات التي تربطهم بثقافتهم الاجتماعية في بعدها اللغوي.

أما عن اللغة بحدّ ذاتها كلغة؛ فإننا نسجل تراجعا كبيرا في بنيتها كمكون ثقافي مميز للمجتمع الجزائري، سببه الهوة السحيقة الحاصلة بين المنظومة التربوية والمنظومة الثقافية. فالأولى تسعى نحو جزأرة التعليم بالنصوص والمنتوج الفكري الذي يؤلفه الجزائريون، وهي بذلك تبتعد عن روح اللغة العربية التي تضرب جذورها في عمق تاريخ الجزيرة العربية والمشرق العربي، والثانية متجهة نحو استيراد ثقافات أجنبية لا تتناسب ومقومات المجتمع العروبي الأصيل الذي وحّدته اللغة لقرون وقرون. وهي أمام التطور التكنولوجي في مجالات المعلوماتية وشبكات التواصل، لا تتضمن مشاريع واضحة للحفاظ على وجودها الاجتماعي و الثقافي والفكري.

8. التوصيات

حتى لا تبقى المدرسة هي الحلقة الأضعف في استقبال اللوم على فشل اللغة في ربط المجتمع العربي بثقافته، بتكرار نفس الأخطاء في كل إصلاح تربوي يحصل فيها. فإننا نقدم بعض التوصيات التي من شأنها إعادة النقاش الذي نتجاوزه في كل مرة؛ عجزا منا أحيانا، واستخفافا بأهميته أحيانا أخرى:

. إعادة الاعتبار للدراسات الاكاديمية الجزائرية والمغاربية والعربية على مستوى التعليم العالي، خاصة منها التي تناولت مسألة اللغة والثقافة. والاستفادة منها في تخطيط الإصلاحات التربوية.

. إعادة التنقيب في التراث المكتوب والمتناول في المؤتمرات الدولية حول مسألة اللغة والثقافة العربية، و الاستفادة منه في تخطيط سياسات الإصلاح التربوي.

. التخفيف من الهيمنة المركزية للفاعلين في حقل التربية لجانا وهيئات، بإشراك الباحثين في مجالات الأدب واللغات والتراث والثقافة وكذا علماء الاجتماع، في تخطيط التربية والتعليم بالبلاد.

. تشكيل لجان خاصة بالتنقيب في التراث الزاخر للدراسات والأطروحات والمقالات بالمجلات الوطنية في مسألة اللغة والثقافة، والاستفادة من الأفكار المخبئة بها، والتي تناولت إصلاحات المنظومة التربوية وتقديمها للجان التربية والتعليم للاستفادة منها في تعديل المناهج المدرسية.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

. تشكيل هيئات مغاربية تتخصص في ربط اللغة العربية بالتراث الثقافي المغاربي، لتوسيع آفاق المتعلمين وتوحيد رؤاهم حول إمكانات تطوير اللغة العربية للمنافسة الدولية.

9. قائمة المراجع:

مراجع عربية:

أسعد وطفة علي، و جاسم الشهاب علي. (2003). *علم الاجتماع المدرسي. بنيوية الظاهرة المدرسية ووظيفتها الاجتماعية*. بيروت: مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشرو التوزيع.

جونز فيليب. (2010). *النظريات الاجتماعية والممارسات البحثية* (الإصدار 1). (ياسر الخواجة محمد، المترجمون) مصر: مصر العربية للنشر والتوزيع.

خرما نايف، و حجاج علي. (1990). *اللغات الأجنبية. تعليمها وتعلمها*. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

زرواتي رشيد، (2007). مناهج وأدوات البحث العلمي في العلوم الاجتماعية (الإصدار 1). الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.

سيد يوسف جمعة. (1990). *سيكولوجية اللغة والمرض العقلي*. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

كرامش كلير. (2010). *اللغة والثقافة* (الإصدار 1). (الشيمي أحمد، المترجمون) . قطر: وزارة الثقافة والفنون والتراث.

هارلمبس، و هولبورن. (2010). *سوشيولوجيا الثقافة والهوية*. (حميد محسن حاتم ، المترجمون) سوريا: دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع.

وزارة التربية الوطنية. (2016). *مناهج مرحلة التعليم المتوسط*. الجزائر: الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية.

وزارة التربية الوطنية. مديرية التقويم والتوجيه والاتصال. (2009).الجزائر: المديرية الفرعية للتوثيق مكتب النشر.

مرجع أجنبي:

Edwar Sapir .(1949) .Selected Writings of Edward Sapir in Langage , Culture, and Personality .California: Mandelbaum University of California Press.

مواقع إلكترونية:

زكي حسام الدين كريم. (بلا تاريخ). *اللغة والثقافة. دراسة أنثرولغوية لألفاظ وعلاقات القرابة في الثقافة العربية*. تم الاسترداد من https://ebook.univeyes.com . بتاريخ:2020/08/12

قميحة جابر. (بلا تاريخ). *شبكة الألوكة*. تاريخ الاسترداد 29 08, 2020، من https://www.alukah.net.

جميل حمداوي. (7مارس2015). *شبكة الألوكة*. تاريخ الاسترداد 20 02, 2020، من https://www.alukah.net.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)